[٣٢٢ – عن أنس بن مالك ﷺ: أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر؟ فقال بعضهم: لا أتزوج النساء. وقال بعضهم: لا آكل اللحم. وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فحمد الله وأثنى عليه، وقال: (ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟! لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)].

ذكر الإمام الحافظ – رحمه الله – هذا الحديث الشريف، حديث خادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك – رضي الله عنه وأرضاه – في قصة النفر الثلاثة، وقد اشتملت هذه القصة على إثبات سنية النكاح وأنه من هدي رسول الله ﷺ، وأنه لا يجوز للمسلم أن يترك النكاح رغبة عنه، وطلبًا للتبتل وكثر العبادة، وإعراضًا عن هذه السنة! ولذلك شدد رسول الله ﷺ في أمرهم، وقال هذه الكلمة العظيمة الجامعة التي بين فيها أهمية متابعته ولزوم طريقته وسنته – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه –. ولما كان هذا الحديث مشتملًا على هذه الدلالة الجليلة العظيمة التي سما فيها الإسلام عن الرهبانية وترْك هذه الشعيرة الطيبة المباركة التي تعود على الناس والمسلمين بالخير في أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم، نظرًا لاشتمال الحديث على ذلك: اعتنى المصنف – رحمه الله – بذكره في باب النكاح. وهذه القصة حاصلها: أن نفرًا – وهم من الثلاثة إلى العشرة –، وقيل: إنهم ستة من أصحاب رسول الله ﷺ، وجاء في بعض الروايات ذكر ثلاثة، أحدهم: علي بن أبي طالب، والثاني: عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما –، وأما الثالث فهو: عثمان بن مظعون، ولكن طعن في رواية عثمان بن مظعون، وأيضًا في حديث علي وتسمية علي وعبد الله بن عمرو أيضًا فيه كلام. فالشاهد: أن هؤلاء أتوا إلى أمهات المؤمنين من أزواج رسول الله – ﷺ ورضي الله عنهن أجمعين – فسألوهن عن هذه المسألة، وهذا يدل على أن الصحابة – رضوان الله عليهم – كانوا يوقعون

المسائل موقعها، فيرجعون في أمور النبي ﷺ الخاصة إلى أمهات المؤمنين؛ لأنهن أعرف بحال رسول الله ﷺ في سره وفي خلوته، ولذلك سألوا عن عبادته وحاله - بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه - في هذا الوجه وفي هذا المكان وفي هذا الموضع الذي لا يطلع عليه غالبًا إلا أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين -. ولذلك كان الخلفاء الراشدون الأئمة المهديون - رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين - يرجعون إلى أمهات المؤمنين في مسائل السنة، وهذا يدل دلالة واضحة على أن من العلم ما ينبغ الإنسان في بعضه، ويحسنه ويحسن ضبط مسائله ومعرفة نصوصه وكشف أحكام نوازله، فمثله أهل أن تنزل به النوازل بعد الله، وأن يقدم بالسؤال على من سواه؛ تأسيًا بأصحاب رسول الله - ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين -. فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مسألة الغسل: إذا جامع الرجل امرأته ولم ينزل، هل يجب الغسل أو لا؟ - وقد تقدمت معنا في الجنابة -، وكانت الرخصة في أول الإسلام: أنه إذا جامع الرجل أهله ولم ينزل فلا غسل عليهما، حتى أمر النبي ﷺ بالغسل بمجرد الإيلاج، فلما وقع بين الصحابة - رضوان الله عليهم - الخلاف: أرسل عمر - رضي الله عنه وأرضاه - إلى أم المؤمنين عائشة وسألها عن هذه المسألة، فحدثته بحديث رسول الله ﷺ: (إذا التقى الختانان) وبينت له السنة المحكمة الناسخة لما تقدم، فقال رضي الله عنه قولته المشهورة: "من خالف بعد اليوم جعلته نكالًا للعالمين". فرجع إليها واحتكم إليها وقدمها على غيرها من الصحابة؛ لأنها أعرف. فكل من فتح الله عليه في علم ونبغ في فهم فهو مقدم على غيره، ولذلك رجع عمر رضي الله عنه في أحاديث الفتن إلى حذيفة بن اليمان، وقال - كما في الصحيحين -: "من يحدثنا حديث الفتن؟ فقال حذيفة: أنا يا أمير المؤمنين. قال: والله إنك عليها لجريء". وكان من أشد الناس في رواية الحديث عن رسول الله ﷺ، ولكن مدحه وقبل منه ذلك وأثنى عليه. فرجوع هؤلاء النفر من الصحابة إلى أمهات المؤمنين يدل على اختيارهم للأعلم والأفهم والأضبط للسنة، خاصة إذا وجد من حاله ما يقتضي.

سألوا أمهات المؤمنين عن عبادة النبي ﷺ في خلوته، وأفضل ما تكون العبادة وأكمل ما تكون العبادة: إذا كانت سرًّا بين العبد وبين الله، لا تراه عين، ولا تسمعه أذن، ولا يحس به بشر، قد أسلم لله قلبًا وقالبًا، فناجى ربه مناجاة الصادقين، واختلى للعبادة خلو المتقين المخلصين المحسنين. ومن هنا: التمس هؤلاء العباد الصالحين من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ أهل صلاح كلهم – رضي الله عنهم وأرضاهم –، فسألوا عن عبادته في خلوته وعن حاله – عليه الصلاة والسلام – في خلوته، فالعبادة في الخلوة والعبادة في السر – في بيت الإنسان وفي حاله الذي لا يطلع عليه إلا الله – هي أصدق ما تكون، وقد تكون العبادة أمام الناس أعظم إذا ترتبت عليها مصالح شرعية، وقصد صاحبها وجه الله ولم يقصد أحدًا سواه: كالعالم الذي يعلم الناس، والداعية الذي يهدي الناس، ونحو ذلك مما يكون في وجوه الناس يقصد به وجه الله ولا يقصد به شيء سواه، ولكن الحال فيه أعظم وأشد. ومن هنا: امتدح الله عبادة السر، وأثنى على الذين يخشون ربهم بالغيب، وهذا رسول الأمة ﷺ ينزل عليه الوحي بثناء الله ﷻ وعظيم ثوابه وجزاءه لمن أخلص لله ﷻ فعبد ربه خاليًا فيما بينه وبين الله، حتى إن رسول الهدى ﷺ أخبر أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه من الدمع) لأنه لا يذكر الله خاليًا إلا وهو معظم لربه، ولا يذكر ربه خاليًا إلا وهو مؤمن بخالقه، مسرف على نفسه، معاتب لها، موبخ لها، مزرٍ عليها، فإذا كان بهذه الحال كان أصدق ما يكون عبودية لله ﷻ. وذكر منهم: (رجل تصدق بصدقة فأخفاها؛ حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه) فإذا كانت شماله لا تعلم ما أنفقته يمينه، فما بالك بالناس؟! فهذا أكمل ما يكون في العبادة. وكان هؤلاء النفر من العباد الزهاد المجتهدين في الطاعة والعبادة، تملكت الطاعة وتملك الخير لقلوبهم حتى أصبحوا يبحثون عن المواطن الشريفة والمواقف الجليلة المنيفة، فسألوا عن حاله – عليه الصلاة والسلام – في الخلوة، وهذا هو حال أهل الصلاح والفلاح في أي حال وفي أي صقع وفي أي جانب من جوانب الطاعة، تجد من فتح الله عليه يتلمس مواطن الكمال

وأحوال الكمال: فإذا كان عابدًا بحث عن أكمل ما يكون من عبادته - عليه الصلاة والسلام -، وإذا كان طالب علم بحث عن أحسن وأفضل وأكمل وأجمل وأجل ما يكون عليه طالب العلم في طلبه، وإن كان عالمًا يعلم الناس بحث عن أحسن الأحوال وأجمل الخلال وأكمل الخصال في تعليم الأمة؛ لأنه شأن أهل الكمالات أن يبحثوا عن الأكمل والأسنى والأسمى في طاعة الله ﷻ. بخٍ بخٍ! إنها تجارة رابحة؛ لأن من عظم الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فلا يرضى بالقليل، وإنما يجد ويجتهد في سمو نفسه وجدها واجتهادها في عبادة الجليل، جعلنا الله وإياكم منهم ووفقنا وإياكم لاتباعهم في أحوالهم.

سألوا عن حال رسول الله ﷺ في خلوته، فأُخبروا عن صيامه وقيامه - صلوات الله وسلامه عليه -، ومتى كان يأتي إلى بيته، متى كان يرتاح وينام فيعطي نفسه حقها وحقوقها، ثم يقوم في طاعة ربه وعبادته. فلما أخبروا جاء في الرواية الأخرى: "فكأنهم تقالّوها" يعني: رأوا ذلك شيئًا قليلًا! لأنها نفوس جامحة، فالدين إذا تملك القلوب قادها إلى طاعة ومرضاة، والدين إذا دخل إلى القلب ولم يصحب باتزان الشرع ربما شطح صاحبه، ومن هنا قال ﷺ: (لن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه) وأخبرنا - عليه الصلاة والسلام - أن علينا أن نوغل في الدين برفق. فلما تملك حب الخير قلوبهم سألوا عن حاله - عليه الصلاة والسلام - في منامه، وحاله مع أهله، وحاله في صومه وفطره، فقال القائل منهم: **[أما إني لا آكل اللحم]** أي: أني أكون صائمًا أبدًا فلا أفطر! ولذلك جاء في اللفظ الآخر: "أما إني أصوم فلا أفطر". وقال الآخر: **[أما إني أقوم ولا أنام]** يعني: أقوم الليل ولا أنام! وقال الثالث: لا أصيب النساء و**[لا أتزوج النساء]**! لما قالوا هذه المقالة قالوا: "تقالّوها"! ما هو السبب الذي جعل الصحابة - رضوان الله عليهم - أن يتقالوا العبادة؟ ما معنى أنهم تقالوها؟ ليس هذا احتقارًا لعبادة رسول الله ﷺ ولا انتقاصًا لها، وإنما كان منهم أنهم تقالوها؛ لأنهم قالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! فهم يرون أن النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وعصمه الله بعصمته بخلافهم، فإنهم بشر يخطئون

وتكون منهم الهنات والزلات، فأحبوا أن يكملوا نقصهم، وأن يجبروا كسرهم، وأن يجدّوا أكثر من غيرهم. فهذا هو مدخل الشبهة عليهم، وكان قصدهم بلا إشكال أنه قصد حسن، وهل كل من قصد وكان قصده حسن يصيب الحق والصواب؟! ومن هنا: يعلم كل مسلم أنه ليس كل كلام ظاهره الصواب أنه صواب وحق ما لم يقم عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. فليست العبرة بالحماس، وليست العبرة بتلك القوة الجامحة التي تقود الإنسان عاطفة! لا علمًا ولا هداية ولا استرشادًا بمن هو أعلم بسنة رسول الله ﷺ وهديه.

فقالوا هذه المقالة، فالذي قال: "أصوم ولا أفطر" آثر الصيام، ورأى أن الله فتح عليه في عبادة الصيام. وأما الذي قال: **[لا أتزوج النساء]** فإنه قد فتح الله عليه في الصبر والجلد، وأراد أن يكبح جماح نفسه إلى درجة أن يبتعد عن هذه النعمة التي أنعم الله ﷻ بها على العباد وسنها لخلقه! وكذلك أيضًا: الثالث الذي قال: "أما إني أقوم ولا أنام" لأن الله فتح عليه في عبادة الليل. وقد ذكر العلماء - رحمهم الله - أن العبد الصالح يفتح الله ﷻ عليه، والناس في صلاحهم يختلفون: فمنهم من فتح الله عليه في العلم، ومنهم من فتح الله عليه في العبادة، ومنهم من فتح الله عليه في العلم في شيء أتقنه وأحسنه ولكنه لم يتقن غيره، ومنهم من فتح الله عليه في العلم ولم يفتح عليه في فقه العلم، ومنهم من فتح الله عليه في العلم لحظ نفسه، فهو يفهم ويضبط المسائل ويحسن العمل بها ويحسن توجيهها وفهمها، ولكنه لم يفتح الله عليه في تعليم الناس وإفهامهم ودلالتهم إلى هذا العلم: فلا يحسن مخاطبتهم، أو لا يحسن توجيههم. ومنهم من فتح الله عليه في العلم في نفسه وفتح عليه في تعليم الناس، ومنهم من فتح الله عليه في العلم والعمل والدعوة فنال أعلى المراتب وأسماها.

كذلك في العبادة: منهم من فتح الله عليه في قيام الليل، ومنهم من فتح الله عليه في الصيام، ومنهم من فتح الله عليه بتلاوة القرآن: فلا يقرأ القرآن إلا فتحت عليه أبواب الرحمة، يقرؤه خاشعًا متخشعًا، ينكسر قلبه للآية من كتاب الله، وينفطر فؤاده من كلام الله. وكل وما فتح

الله عليه، ومن هنا: اختلفت عبارات هؤلاء الثلاثة النفر، فكل منهم التمس جانبًا أحس أن الله فتح عليه، ومن هنا: لا يثرب أحد على أحد فيما فتح الله عليه. كتب رجل من أصحاب مالك – رحمه الله – إلى الإمام مالك – وكان صديقًا له في طلبه للعلم –، وقال له: "إيه يا أبا عبد الله، تفرغت للناس تأمر وتنهى وتفتي! فالويل لك من الله ﷻ إن سألك" أي: الويل لك إذا وقفت بين يدي الله وحاسبك عن هذا العلم الذي تعلمه الناس. وكان هذا الرجل عابدًا قد تعلم، فقبع في بيته يعبد الله ﷻ، فكتب له الإمام مالك – رحمه الله – وقال له: "إن من الناس من فتح الله عليه في العبادة، ومنهم من فتح الله عليه في تعليم الناس، فأنت وما فتح الله عليك، وأنا وما فتح الله علي!" أي: أن الله فتح علي في تعليم المسلمين، فكل وما فتح الله عليه. ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن الجنة أبواب، ثم قال – عليه الصلاة والسلام –: (من أنفق زوجين في سبيل الله نودي يوم القيامة: يا عبد الله، هذا خير. فمن كان من أهل الصلاة نودي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة نودي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد نودي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام نودي من باب الريان) فهذا يدل على فتوحات الله ﷻ على عباده.

فلما أخبر – عليه الصلاة والسلام – بمقالتهم، وهذا فيه دليل على عرض الأمر على العالم؛ فإن أمهات المؤمنين – رضي الله عنهن وأرضاهن – سمعن من هؤلاء الصحابة، سمعن الواحد يقول: "أما إني أصوم ولا أفطر"، وسمعن الآخر يقول: "أما إني أقوم ولا أنام"، وسمعن الثالث يقول: "أما إني لا أتزوج النساء". لما سمعن ذلك كلمات ظاهرها الخير، وحينما يقول القائل: "أما إني أصوم فلا أفطر" فإنه لا يشك أحد أنه في عبادة وطاعة وخير، ولكن من فقه أمهات المؤمنين: لم يغترن بظاهر المقال، وإنما سألن رسول الله ﷺ: هل هذا حق أو ليس بحق؟ فلما دخل – عليه الصلاة والسلام – سئل. ومن هنا: ليست كل دعوة وليس كل كلام يقال – مهما كان ظاهره حسنًا – يقال من رجل لا علم عنده: يقبل! وإنما يعرض

على الأعلم؛ حتى يعرضه على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فيتبصر: هل هو حق أو ليس بحق؟ وليس كل مبتغٍ للخير واجده.

فلما دخل رسول الهدى ﷺ أخبر بمقالتهم، في بعض الروايات: خاطبهم – عليه الصلاة والسلام – مباشرة، وفي بعضها: **[أنه قام، فحمد الله وأثنى عليه]** وفي هذا دليل على عظيم شفقته – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه – على أمته، وحرصه على تبليغ رسالته وأداء أمانته – جزاه الله عنا خير ما جزى نبيًّا عن نبوته وصاحب رسالة عن رسالته –. فقام – عليه الصلاة والسلام –، قام داعيًا إلى الله مبشرًا ونذيرًا: مبشرًا من يتبع السنة، ومنذرًا من يخالفها. داعيًا إلى الله بالحنيفية السمحة، لا إجحاف ولا غلو ولا إسراف، قام – عليه الصلاة والسلام – ليقول كلمات طيبات طاهرات منيرات، تشرق بها أنوار هذه السنة التي فيها التيسير على الأمة لا العسر، وفيها الرحمة لا العذاب. يقول ﷺ: **[قام، فحمد الله وأثنى عليه]** وهذا يدل على أن السنة في مجالس الذكر ومجالس الوعظ، وأن من أراد أن يذكر الناس أو يعظ الناس: أن يستفتح بحمد الله، وأن يثني على الله بما هو أهله. والأصل في ذلك: كتاب الله وسنة النبي ﷺ، أما كتاب الله: فإن الله علمنا ذلك حينما استفتح كتابه فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فاستفتح الكتاب بفاتحة الكتاب، وهي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وسماها رسول الله ﷺ "فاتحة الكتاب"، وأولها: حمد الله والثناء عليه، ومن هنا قال العلماء – رحمهم الله –: السنة: أن يستفتح في الوعظ والتذكير وفي كل شيء من أمور الدين بحمد الله والثناء عليه.

ثانيًا: أنه قال: **[قام، فحمد الله وأثنى عليه]** لم يلتزم صيغة معينة، لم يلتزم "إن الحمد لله نحمده ونستعينه" بحيث لو استفتح أحد بغيرها عد مبتدعًا! لو كان يلتزم صيغة معينة لقالت تلك الصيغة أم المؤمنين عائشة في قصة بريرة، ولكنها قالت: (قام، فحمد الله وأثنى عليه بما

هو أهله). ومن هنا: أخذ العلماء – رحمهم الله – أن السنة: أنه إذا خاطب الناس أو وجههم أن يستفتح بحمد الله والثناء عليه بما يناسب الحال.

قال – رضي الله عنه وأرضاه –: [**فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:** (**ما بال أقوام**)] وهذه هي سنته – عليه الصلاة والسلام –: أنه لا يشهر، وأنه لا يقرع ولا يوبخ الناس في وجوههم، وأن الله بعثه رحمة للعالمين، فما كان صخابًا، ولا سبابًا، ولا لعانًا – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه –. فقال: [(**ما بال أقوام**)] وهذا أدب أدبه به ربه؛ لأن الله – جل وعلا – علمنا كيف نوجه، حتى إنه – سبحانه – لما عاتب نبيه قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ لم يقل: "عبس محمد"، ولم يقل: "عبس النبي" صلوات الله وسلامه عليه، ولم يقل له: "عبست"، وإنما قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فمن قرأ لا يدري من الذي عبس ما لم يكن عالمًا بسبب نزولها! وهذا يدل على أنه إذا كان المقصود التوجيه والإرشاد: أنه يترفع الإنسان عن أذية الناس، وعن قرعهم وعن توبيخهم، وإذا كان الإنسان موجهًا ومعلمًا فليعلم أنه يتكلم عن الله ورسوله، وأن دين الله وشرع الله جاء لكي يأخذ بمجامع القلوب ويهيئ كل الأسباب لقبول الحق والرضا به؛ ليهيئ كل الأسباب للقبول لا للرد، ويهيئ كل الأسباب للتبشير لا للتنفير، وهذه هي سنة رسول الله ﷺ. ولما بعث – عليه الصلاة والسلام – معاذًا وأبا موسى الأشعري – رضي الله عنهما وأرضاهما – إلى اليمن قال لهما – كما في الصحيح –: (يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا) فإذا سمي الشخص باسمه وقرع في شخصه: فإن هذا قد يجعله متكبرًا عن الحق وعنده أنفة عن قبوله، ولربما بقيت وصمة عار في وجهه يعير بها ويؤلم بها قلبه، ولعله أن يصلح حاله من بعد فساد. فمن نظر إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه وأرضاه – حينما كان في الجاهلية قد أتى إلى رسول الله ﷺ حاملًا سيفه يريد قتل النبي ﷺ، فقلبه الله إمامًا من أئمة المسلمين! قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "رحم الله عمر، لقد كان إسلامه نصرًا وهجرته فتحًا وخلافته رحمة بالمسلمين". فانظر كيف جعل الله فيه من

الخير! فلو أنه عُنف ووبخ في جاهليته ووصم، لربما كان الإنسان ضعيفًا فأخذته العزة بالإثم! وهكذا في السنن، وهكذا في الآثار، وهكذا بالنسبة للناس. ولقد قرر العلماء والأئمة – رحمهم الله – أنه ينبغي الستر ما أمكن، حتى إن من شريعة الإسلام: لو أن أربعة شهود اطلعوا على رجل يزني بامرأة – والعياذ بالله –، فقد أجمع العلماء – رحمهم الله – على أن الأفضل والأكمل: أن يسترا، وأن لا يكشف حالهما، وهذا بإجماع العلماء – رحمهم الله –. ولذلك لما جاء ماعز ﷺ إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، طهرني. قال: (ويحك! ارجع فاستغفر الله ثم تب إليه) لأنه دين يسر لا عسر، فإذا وبخ الإنسان وقرع: سارت بالأحاديث الركبان وانتشر خبره في كل مكان، وعندها يتأثر وينجرح فؤاده، فإن النفوس تأنف ولربما يتسلط الشيطان على القلب، ومن هنا: سن رسول الهدى ﷺ لكل موجه ألا يقرع الناس وألا يوبخهم، وألا يستطيل في أعراضهم، وألا يدخل في نياتهم، وألا يجعل العوائق دونهم ودون شرع الله ﷻ. وبين العلماء – رحمهم الله – أنه إذا اطلع المسلم على أخيه المسلم بهنة أو زلة، فإن الأفضل والأكمل: أن ينصحه فيما بينه وبينه، وألا يشهر به في الناس إلا في حالة مستثناة، وهي: الفاسق المجاهر بفسقه، أو وجدت حاجة تستلزم أن يكشف عوار أهل النفاق وأهل الزيغ الذين يلمزون الدين وينتقصون المسلمين ويشمتون بصالحيهم وخيارهم، ممن يكون فيه زندقة، أو فيه هوى، أو فيه إلحاد، أو فيه فجور: فهؤلاء يكشف عوارهم ويفضح أمرهم، وليس لهم حق في الإسلام؛ لأنهم هم الذين هتكوا ستر الله على أنفسهم! وقد قال رسول الهدى ﷺ: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين) فهؤلاء الذين يجرؤون على مقالة السوء في وجوه الناس، ويبينون ويكشفون أمورًا يلبسون فيها الحق بالباطل: فهؤلاء ليس لهم حق، وإنما ينبغي كشف عوارهم، ولكن بشرط: أن يكون هناك مصلحة شرعية في كشفهم، أما إذا كان أخذهم باللين والتلطف معهم يجدي وينفع: فالواجب فعل ذلك معهم ومحاولة كسب قلوبهم للإسلام؛ لأن رسول الله ﷺ كان يقول: (اللهم اهد قومي؛ فإنهم لا يعلمون) مع أنهم جرحوه – عليه الصلاة والسلام – وشجوه،

وقتلوا عمه وبقروا بطن عمه – رضي الله عنه وأرضاه –! ورأى منهم ما رأى – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه – ومع ذلك كان يدعو الله لهم بالهداية! فإذا وجدت مصلحة في كشف حال الإنسان كُشف، وإذا كان المقصود بيان الخطأ: فإنه يمكنه أن يبين الخطأ للإنسان دون أن يشهر به ويفضح.

قال ﷺ: [(**ما بال أقوام**)] وقد تقدم بيان بعض الحكم والمسائل المتعلقة بهذه الجملة في حديث بريرة – رضي الله عنها وأرضاها –.

وقوله – عليه الصلاة والسلام –: [(**أما إني أصوم وأفطر**)] فالسنة عن رسول الله ﷺ أن الصوم ينقسم إلى قسمين:

صوم فريضة، وهو: شهر الله الذي أوجبه الله على المسلمين "رمضان" حيث لم يفرض عليهم شيئًا سواه، وصوم النذر إذا ألزم المسلم به نفسه، وصوم الكفارات إذا وقع في موجبها.

وأما الصوم الذي هو صوم النافلة: فللنبي ﷺ فيه سنن تقدم معنا بيانها في باب صوم التطوع، وبينا أن من سنته: صيام ثلاثة أيام من كل شهر وأوصى بها أبا هريرة – رضي الله عنه وأرضاه –، ومن سنته: صوم يوم وإفطار يوم، كما أوصى بذلك عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنه وعن أبيه –، وهو صوم نبي الله داوود – عليه السلام –. فإذا أراد أن يصوم وطلب الأكمل والأفضل والأعظم ثوابًا في الصيام، هو: أن يصوم يومًا ويفطر يومًا، بشرط: ألا يعيقه ذلك عما هو أوجب وعما هو آكد. أما إذا كان حاله متيسرًا، وكان في عطلة وفراغ ويستطيع أن يصوم يومًا ويفطر يومًا: فإنه يصوم، ومن صام لله يومًا شديدًا حره بعد الله عن وجهه النار سبعين خريفًا، ومن صام لله ﷻ وأخلص لله في صومه: كان صومه جنة، وكونه جنة: لا تتخطفه كلاليب النار إذا اجتاز على صراطها. وكذلك أيضًا: قيام الليل. فهذا الأكمل والأفضل في الصوم. فإن ضاق على الإنسان حاله: صام الاثنين والخميس وصام ثلاثة أيام من كل شهر، فهذا خير كثير وفضل عظيم.

وأما بالنسبة للقيام: فإن رسول الهدى ﷺ بين بقوله: [(**وأقوم وأنام**)] أي: أقوم في الليل وأنام من الليل. ومن هنا: تقدم معنا في صلاة التطوع أن قيام الليل من أحب الطاعات إلى الله ﷻ، ولو لم يكن في شرفه وفضله إلا أن الله ﷻ استفتح به أمره لنبيه – عليه الصلاة والسلام – حينما أصبح بعد أن أوحي إليه، فقال: (إني خشيت على نفسي) فزملوه – عليه الصلاة والسلام –، فأوحى الله إليه: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ وهذا يدل على فضل قيام الليل، وعظيم شأنه في صلاح حال العبد وعظيم شأنه على الإسلام والمسلمين، ولذلك قيام الليل شأن الصالحين، ودأب الأخيار والمتقين ﴿ **كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** ﴾ فهذه من أعظم نعم الله على العبد: أن يوفقه لقيام الليل، وهو على مراتب:

أفضلها: أن يقوم آخر الليل "الثلث الآخر من الليل".

ويلي ذلك: قيام نصف الليل.

ويلي ذلك: قيام أول الليل.

ولذلك من كل الليل أوتر – عليه الصلاة والسلام –: فأوتر من أول الليل، ومن نصفه، وانتهى وتره إلى السحر؛ لأنه كان آخر الأمرين منه – عليه الصلاة والسلام – في الأفضل والأكمل، وهو: ثلث الليل الآخر. فإذا التمس الإنسان الأفضل والأكمل، فالأفضل: أن يقوم آخر الليل وأن يحرص على ذلك، وأن يكون قيامه بعد نوم، وهذا لحكم عظيمة:

أولها: أن النفس تكون أقوى، وأن يكون مستجم النفس والفؤاد، وحينئذ: يستحضر معاني الآيات ويتأثر بالقرآن أكثر.

كذلك أيضًا: لأنه إذا نام أول الليل وقام آخر الليل فقد ذاق لذة النوم والكرى، ولا يستطيع أحد أن يذوق لذة النوم وحلاوة النوم ثم يقوم ويتهجد بين يدي الله إلا بإيمان عظيم! ومن

هنا: يشتد أمره إذا كان نائمًا أن يقوم، ولربما كان نائمًا مع أهله وزوجه، في دعته وسكونه، وحبه وأنسه، ثم يؤثر مرضاة الله على كل ذلك! فيؤثر مرضاة الله على حظ نفسه في الراحة، ويؤثر مرضاة الله على حظ نفسه في الشهوة، ومن هنا جاء في الخبر: أن العبد إذا كان نائمًا مع زوجه ثم قام فتوضأ ليصلي، قال الله: (يا ملائكتي، عبدي ما الذي أقامه من حبه وزوجه؟) فيقولون: يا ربنا، - وهو أعلم سبحانه - يرجو رحمتك ويخشى عذابك. يعني: ما قام من هذا المقام إلا وهو يرجو رحمة الله ويخشى عذابه. فيقول: (أشهدكم أني أمنته من عذابي وأصبته برحمتي).

فقيام الليل أفضل أن يكون على هذا الحال: أن يكون هناك نوم ثم قيام، فكانت سنة النبي ﷺ -كما أخبر عنه عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث -: أنه ينام ثم يقوم، وهذا -كما ذكرنا - أبلغ في الجهاد، ومن هنا قال تعالى: ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ** ﴾ فهو مجافٍ للمضجع مباعد له بعد أن ذاق لذته وحلاوته، فبين - عليه الصلاة والسلام - أن هذا من سنته، وهذا يدل على أن التحدث بالطاعة الخفية إذا ترتبت عليه مصلحة شرعية: أنه لا بأس بذلك ولا حرج، فلا بأس على الإنسان أن يخبر عن أموره الخاصة لمن يعلم أنه يتأثر بذلك، وقد وقع ذلك من أصحاب رسول الله ﷺ وأخبروا عن أمور بينهم وبين الله، خاصة إذا غلب على الإنسان أن الله يحفظه من الرياء، وأنه لا يجد لمدح الناس وثنائهم وقعًا في قلبه، أو يخبر من يثق بمحبته، فلا يبحث عن هذا الإخبار لمصلحة في نفسه.

قال - عليه الصلاة والسلام -: **[(وأتزوج النساء)]** أي: أني أنكح النساء وأصيب النساء. وهذه هي سنة المرسلين والأنبياء، وقد تقدم معنا بيان النصوص في كتاب الله وسنة النبي ﷺ على فضل هذه السنة وشرعيتها، وهذا هو موضع الشاهد: أنه من سنته - عليه الصلاة والسلام - النكاح، وأكد المصنف بذكر هذا الحديث على أنه ليس من السنة أن يحقر النكاح، فيعزف عنه تحقيرًا له وكراهية له، فمنهم من يقول: لا أريد النساء! والنساء لا

خير فيهن! والنساء فيهن الأذى والبلاء! ونحو ذلك من الرغبة والعزوف. وإنما كان النكاح من سنة رسول الله ﷺ؛ لعظيم ما فيه من الخير. وقد بينا أن النبي ﷺ دعا إلى النكاح ورغب فيه؛ لتكثير سواد الأمة، ففيه المصالح، فهو يقوي الإسلام، فتقوى به ثغور الجهاد؛ لأن الجهاد يستأصل كثيرًا من المسلمين وتذهب فيه أرواحهم، ففي النكاح تعويض للإسلام والمسلمين وجبر لهذا الكسر.

وفي قوله – عليه الصلاة والسلام – بعد ذلك: [(**فمن رغب عن سنتي فليس مني، فمن رغب عن سنتي فليس مني، فمن رغب عن سنتي فليس مني**)] كلمات عظيمة لا يسمعها مؤمن بالله واليوم الآخر إلا رجف قلبه من الله ﷻ؛ خوفًا من الله ﷻ أن يبرأ رسول الله ﷺ ممن رغب عن سنته وأنه ليس من رسول الله ﷺ.

وفي الحديث منطوق ومفهوم، فمنطوقه: أن كل من أعرض عن السنة؛ رغبة عنها وعزوفًا عنها واحتقارًا لها: أنه ليس من رسول الله ﷺ، ليس على سنته وليس على طريقته وليس على هديه. قال بعض العلماء: لا يحشر مع رسول الله ﷺ. وقال بعض العلماء: مفهوم الحديث: أن من أحب السنة ولزمها، وسأل عنها وعمل بها، وأحب ذلك العلم والعمل: فلا يجلس في مجلس علم يتعلم سنة إلا ملأ قلبه حمدًا ولسانه شكرًا وثناءً لله أن الله علمه سنة رسوله ﷺ، فإذا كان بهذا الحال من المحبة: كان من رسول الله ﷺ، وكان من أهل طاعته وأهل سنته، وهذه هي المحبة الصادقة التي لا تشوبها شائبة: أن يكون الإنسان مع سنة رسول الله ﷺ، ويكمل للإنسان حبه لرسول الله ﷺ بكمال حبه للسنة ولزومه لها، ويصدق في ما يقول ويدعي من حبه لرسول الله ﷺ إذا أثبت الشواهد والدلائل على اتباعه لسنة رسول الله ﷺ.

[(**فمن رغب عن سنتي**)] من هذا الذي يرغب عن سنة النبي ﷺ؟! ومن هنا: تأدب المسلمون سلفًا وخلفًا، تأدب المسلمون نساءً ورجالًا مع سنة الرسول ﷺ، كل ذلك تعظيمًا لها وحبًّا لها، فلا يدعى أحد إلى السنة إلا قال: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾. ولا يعلّم أحد سنة إلا حرص على تطبيقها والعمل بها، حتى كان بعض السلف يقول - رحمهم الله - وهو سفيان الثوري: "إن استطعت ألا تحك شعرة إلا بأثر فافعل" ما مراده بذلك؟ مراده: أن تكون السنة في حال الإنسان حتى في سمته ودله، يريد أن يسرح شعره يسأل: كيف كان النبي ﷺ يسرح شعره؟ وإذا أراد أن يأكل سأل: كيف كان رسول الله ﷺ يأكل؟ وإذا أراد أن يشرب، في أموره الجبلية فضلًا عن أموره الشرعية الدينية! فإذا بلغ هذا المبلغ: فقد فتح الله له باب رحمة لا عذاب معه أبدًا، فما من أحد يحب سنة النبي ﷺ إلا أنار الله قلبه بنور الإيمان، وشرح صدره وكتب له الهداية، ومن هنا قال ﷻ: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: اتبعوا رسولنا - صلوات الله وسلامه عليه -، واتباع الرسول ﷺ إنما هو اتباع للسنة.

[(**من رغب عن سنتي**)] الرغبة عن السنة تكون بأحوال، منها:

أن تكون الرغبة الصريحة - والعياذ بالله -، فيقول أحدهم، تقول له: هذه هي سنة رسول الله ﷺ وهذا هديه، وتقام عليه الحجة ويبين له الدليل ويتأكد أنها السنة، فيقول: لا أريد هذا! - والعياذ بالله -.

ومنهم: من يصفها بالتخلف وبالرجعة وبالجمود! قاتل الله المبطلين! فأف لهم ولما يدعون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ فما من أحد يحتقر سنة رسول الله ﷺ، أو ينقص من شأنها، أو يردها، أو يعزف عنها: إلا بلي بالفتنة - والعياذ بالله - ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ غار الله على سنة رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - وأنزل هذا الوعيد من فوق سبع سماوات ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ تحذير للصغير والكبير، والجليل والحقير إذا بلغته سنة رسول الله ﷺ وهديه، ولذلك كان السلف

الصالح يعظمون السنة ويعظمون هدي رسول الله ﷺ. وكان الإمام مالك – رحمه الله – لا يحدث بحديث عن رسول الله ﷺ إلا إذا طيب مجلسه؛ إكرامًا لحديث رسول الله ﷺ، وكان إذا جلس تخشع وظهر في وجهه الأثر؛ من هيبته لسنة رسول الله ﷺ. ومن العجيب: أنه أجمع أهل السير في نقلهم لسيرة الإمام مالك – رحمه الله – أنه كان مهابًا، حتى إنه ليجلس بين يديه العالم فلا يستطيع في بعض الأحيان أن يتكلم ليسأله عن المسألة! مما وضع الله له من الهيبة في القلوب، ولكنه كان أشد الناس هيبة لسنة رسول الله ﷺ، ومن هنا: كان شديد المتابعة لهديه – عليه الصلاة والسلام –، شديد التأسي بسنته – عليه الصلاة والسلام –.

فحذّر – عليه الصلاة والسلام – بهذا التحذير والقول البليغ [(**فمن رغب عن سنتي فليس مني**)] وهذا إعذار منه – عليه الصلاة والسلام – لربه، وبيان للأمة أن تحرص كل الحرص على اتباع هذه السنة، وعلى تعظيمها وتوقيرها، ولزومها وعدم التقديم عليها والتأخير. كذلك من الرغبة عن السنة: أن يُعمِل الإنسان – والعياذ بالله – رأيه؛ لكي يصادم سنة رسول الله ﷺ، فيوهن منها أو يشكك فيها! ولربما أورد الشبهات – نسأل الله السلامة والعافية –؛ ليصرف قلوب المؤمنين والمؤمنات عن الآيات البينات والسنن الواضحات النيرات! ومن ذلك – على سبيل المثال –: حديث الذباب، صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه؛ فإن في أحد جناحيه الداء وفي الآخر الشفاء) فيقول قائلهم: لا نؤمن بهذا ولا نصدقه! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ عن السنة، فتجدهم تارة يتكلمون في أصحاب رسول الله ﷺ ويطعنون في رواتها! حتى إن أحدهم تقصد أبا هريرة – رضي الله عنه وأرضاه – راوي الحديث عن رسول الله ﷺ، وآذاه في روايته لحديث رسول الله ﷺ! وأثر عن بعض الكتاب المتأخرين ما يكون عبرة لكل من سمعه: أنه كان يتكلم في أبي هريرة؛ لأنه كان لا يتقبل أحاديثه التي يسميها "الغريبة"! ويقول: لا يتقبل أحاديثه التي لا تدخل العقل! وسبحان ربي! متى كان

العقل حكمًا على النقل؟! ومتى كان المخلوق حاكمًا على الخالق؟! ومتى كان حكم الله يعقب؟! والله يحكم ولا معقب لحكمه! فكان هذا الرجل والكاتب يتقمص الروايات الغريبة في رأيه، ويحاول أن يلمز أبا هريرة ﷺ في روايته لسنة رسول الله ﷺ! وشاء الله لبعض المنتسبين للعلم أن يسافر إلى بلد هذا الكاتب في إجازته، فأراد أن يزوره ليناظره، ويريد الله أن يكون دخوله عليه وهو مريض مرض الموت، ويوافق دخوله في سكرات الموت - والعياذ بالله -، قال: فوجده مظلم الوجه، قد اشتدت عليه سكرات الموت، وإذا به ينهج ويتقطع نفسه، فيقول: آه أبو هريرة، آه أبو هريرة. حتى فاضت روحه - والعياذ بالله -.

فالرغبة عن السنة بالطعن فيها والطعن في رواتها واللمز لا يؤمن على صاحبه سوء الخاتمة - والعياذ بالله -، ولا يؤمن على صاحبه الفتنة، ولذلك قال الله في الذين لمزوا القراء: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ فإذا كان أهل الشرك يقول الله لهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ وهؤلاء يقول: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ كل هذا تعظيمًا لمن حمل الكتاب والسنة! وأنه ينبغي صيانة الإنسان للسانه عن الوقوع في سنة رسول الله ﷺ وأصحابه الذين نقلوا السنة وحفظوها للأمة. نسأل الله العظيم رب العرش الكريم بعزته وجلاله أن يرزقنا حبهم والائتساء والاقتداء بهم، وأن يحشرنا في زمرتهم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

في هذا الحديث الشريف المنيف دليل على سمو الشريعة التي برئت من الغلو في الدين والتنطع فيه والمبالغة في العبادة إلى درجة الرهبنة، جاء بها - عليه الصلاة والسلام - حنيفية سهلة من الله - جل وعلا - الحليم الرحيم، الذي خاطب الأمة فكشف عنها الغمة وكشف عنها الآصار التي كانت على من قبلها ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾

فهذه رحمة من الله مهداة إلى خلقه. ولكن ما هو تيسير الأمة؟ ومتى يكون العبد في الوسطية التي لا غلو فيها ولا إجحاف؟ فهذه الوسطية التي رسمها رسول الله ﷺ للأمة يتمناها كل مسلم، لكنها ليست بالتشهي ولا بالتمني ولا بالدعاوى العريضة، وإن المسلم ليعجب حينما يجد بعض الناس كلما رأى متمسكًا بدينه وصفه بالجمود والتنطع! وأخذوا من هذا الحديث حجة لهم على وصف كل من تمسك بالدين أنه متنطع، ويقولون: إن النبي ﷺ يقول: (هلك المتنطعون)! وعاتب هؤلاء وخاصمهم - عليه الصلاة والسلام - ورد ما كان من حالهم، وحينئذ نقول: لا يجوز لأحد أن يصف أمرًا بالجمود، ولا أن يصفه بأنه إجحاف، ولا يصفه بأنه تنطع في الدين، حتى يرجع إلى العلماء الأمناء الذين يعرفون قول الله وقول رسوله ﷺ، فيحكمون على الأمور: هل هي صواب ووسط لا اعوجاج فيه، خالٍ من الإسراف ومن الإجحاف؟ أم هي خطأ يقوم صاحبه ويرشد بالتي هي أحسن لما هو أسلم وأقوم؟ [...].